

التوبة أول مقامات الدين، ورأس مال السالكين، ومفتاح استقامة السائلين، ومطلع التقرب إلى رب العالمين، مَدْحُهَا عَظِيمٌ، وَفَضْلُهَا جَسِيمٌ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة: ٢٢٢)، وناهيك في فضلها أتمها بلسم الذنوب، وسفينة النجاة، وصمّام الأمن من سخط الله تعالى وعقابه، وقد أبت العناية الإلهية أن تُهْمَلَ الْعَصَاةُ يتخبطون في دياجير الذنوب، ومجاهل العصيان، دون أن يسعهم الله بعطفه السامي، وعفوه الكريم، فشوقهم إلى الإنابة، ومهد لهم التوبة، فقال سبحانه: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الأنعام: ٥٤)، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر: ٥٣).

وقال عز وجل: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا\* يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا\* وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَيِّنٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ (نوح: ١٠-١٢)، وقال رسول الله ﷺ: (التائب حبيب الله، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له) (جامع السعادات: ج ٣، ص ٥١).

وقال الإمام الباقر عليه السلام: (إن الله تعالى أشد فرحاً بتوبة عبده من رجل أضل راحلته وزاده في ليلة ظلماء فوجدها، فالله أشد فرحاً بتوبة عبده من ذلك الرجل براحلته حين وجدها) (الكافي: ج ٢، ص ٤٣٥).

وقال الإمام الصادق عليه السلام: (إذا تاب العبد توبة نصوحاً، أحبه الله فستر عليه في الدنيا والآخرة، فقلت: وكيف يستر عليه؟ قال: يُنْسِي ملكيه ما كتب عليه من الذنوب ويوحى إلى جوارحه: اكنمي عليه ذنوبه ويوحى إلى بقاع الأرض اكنمي ما كان يعمل عليك من الذنوب، فيلقى الله عز وجل حين

يلقاه وليس شيء يشهد عليه بشيء من الذنوب) (الكافي: ج ٢، ص ٤٣٠).

وعنه عليه السلام: (ما من مؤمن يقارف في يومه وليلته أربعين كبيرة فيقول وهو نادم: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم بديع السماوات والأرض ذو الجلال والإكرام وأسأله أن يصلي على محمد وآل محمد وأن يتوب عليّ، إلا غفرها الله له، ولا خير فيمن يقارف في يومه أكثر من أربعين كبيرة) (الوسائل: ج ١٥، ص ٣٣٣).

### معنى التوبة:

**التَّوْبَةُ فِي اللَّغَةِ:** الرَّجُوعُ مِنَ الذَّنْبِ، يُقَالُ: تَابَ إِلَى اللَّهِ يُتُوبُ تَوْبًا وَتَوْبَةً وَمَتَابًا: أَنْابَ وَرَجَعَ عَنِ الْمَعْصِيَةِ إِلَى الطَّاعَةِ، وَاسْتَبْتَبْتُ فَلَانًا: عَرَضْتُ عَلَيْهِ التَّوْبَةَ مِمَّا اقْتَرَفْتُ، أَي: الرَّجُوعَ وَالنَّدَمَ عَلَى مَا فَرَطَ مِنْهُ، وَاسْتَبَّاهُ: سَأَلَهُ أَنْ يُتُوبَ.

**وأما التوبة في الاصطلاح الشرعي:** فقد اختلفت الكلمات في معناها على أقوال: فقليل: الندم على الذنب لكونه ذنباً، وقد يزداد بالإضافة إلى ما تقدم هذا القيد: مع العزم على ترك المعاودة أبداً، والظاهر: أن هذا العزم لازم لذلك الندم غير منفك عنه، وقيل: الندم على المعصية، لكونها معصية، والعزم على ترك المعاودة في المستقبل، لأن ترك العزم يكشف عن نفي الندم.

### حقيقة التوبة:

لا تتحقق التوبة الصادقة النصوح إلا بعد تبلورها، واجتيازها أطواراً ثلاثة:

**فالطور الأول:** هو طور يَقْظَةُ الضمير، وشعور المذنب بالأسى والندم على معصية الله تعالى، وتعرضه لسخطه وعقابه، فإذا امتلأت نفس المذنب بهذا الشعور الواعي انتقل إلى:

**الطور الثاني:** وهو طور الرجوع إلى الله عز وجل، والعزم الصادق على طاعته، ونبد عصيانه، فإذا ما أنس بذلك تحول إلى:

**الطور الثالث:** وهو طور تصفية النفس من رواسب الذنوب، وتلافي سيئاتها بالأعمال الصالحة الباعثة على توفير رصيد الحسنات، وتلاشي السيئات، وبذلك تتحقق التوبة الصادقة النصوح.

وليست التوبة هزلاً عابثاً، ولقلقة تشدق بها اللسان، وإنما هي: الرجوع الصادق إلى الله تعالى، ومجافة عصيانه بعزم وتصميم قويين، والمستغفر بلسانه وهو سادر في المعاصي مستهتر كذاب، كما قال الإمام الرضا عليه السلام: (المستغفر من ذنب ويفعله كالمستهزئ بربه) (الكافي: ج ٢، ص ٥٠٤).

### مخاطر تأخير التوبة:

إن لتأخير التوبة وتسويق الإقلاع عن الذنوب مخاطر كبيرة، نذكر منها:

**أولاً:** إن تأخير التوبة مدعاة لأن يفسد الإنسان لطف الله تعالى في محو المعصية والعفو عن الذنب عاجلاً، فالكثير من النصوص الدينية تشير إلى أن الله سبحانه وتعالى إنما يمحو الذنب عن عباده إذا ما سارعوا إلى التوبة حتى كأنهم لا ذنب لهم، فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: (إن العبد إذا أذنب ذنباً أجّل من غدوة إلى الليل، فإن استغفر الله لم يكتب عليه) (الكافي: ج ٢، ص ٤٣٧).

وعنه عليه السلام: (العبد المؤمن إذا أذنب ذنباً أجّله الله سبع ساعات، فإن استغفر الله لم يكتب عليه شيء، وإن مضت الساعات ولم يستغفر كتبت عليه سيئة، وإن المؤمن ليذكر ذنبه بعد عشرين سنة حتى يستغفر ربه فيغفر له) (الكافي: ج ٢، ص ٤٣٧)، وكان في ذلك - بمقتضى قول الإمام عليه السلام - فرصة للإنسان للمراجعة والتوبة قبل أن تكتب عليه معاصيه.

**ثانياً:** ينطوي تأجيل التوبة على مخاطر، منها: ضعف إرادة المرء، واهتزاز وفتور عزمته على التوبة، ويعود ذلك إلى أن الإنسان كلما استمر في القبول بالذنب وممارسته فإنه يتكيف معه ويتطبع به، من هنا تأتي أهمية اقتناص لحظات الهداية لاتخاذ قرار التوبة، حذراً من فوات هذه الفرصة، وبهذا

نفهم قول الله تعالى حين يتحدث في محكم كتابه الكريم عن المسارعة إلى التوبة: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (النساء: ١٧).

ومضمون التعبير القرآني: ﴿يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾، أي: لا يتأخرون في التوبة، وورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: (لا دين لمُسَوِّفٍ بتوبته) (موسوعة أحاديث أهل البيت: ج ٢، ص ٢٦٨)، وفي ذلك إشارة خطيرة من الإمام عليه السلام بأن من يُسَوِّفُ التوبة سيكون عرضة لفقدان الحالة الدينية في نفسه.

**ثالثاً:** عدم ضمان المرء لحياته، فإلى متى سوف يؤجل المرء التوبة ومتى سيقلع عن الذنب، أترأه يضمن حياته، أفلا يخشى هجوم الأجل عليه وهو بعد لم ينجز التوبة؟ ورد عن الإمام علي عليه السلام: (مسوّف نفسه بالتوبة، من هجوم الأجل على أعظم خطر) (المستدرک: ج ١٢، ص ١٣٠).

فعلى الإنسان أن يبادر إلى التوبة بمجرد أن يتنبه إلى الخطأ والمعصية، وهذا ما يوجه إليه الإمام الجواد عليه السلام بقوله: (تأخير التوبة اغترار - أي حالة من الغرور يعيشها الإنسان الذي يعتقد بطول الأمل والعمر - وطول التسويق حيرة - أي يجعل الإنسان حائراً بين الصح والخطأ من حيث السلوك - والاعتلال على الله هلكة - أي يتحجج بالعثور على فرصة مناسبة، في وقت آخر، هذه كلها أعداء: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ\* وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾ - والإصرار على الذنب أمن لمكر الله: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (تحف العقول: ص ٤٥٦).

### أركان التوبة وشروطها:

التوبة هي الإقلاع عن الذنب، ويعتبر في تحققها ثلاثة قيود:

**الأول: ترك الفعل في الحال.**

**الثاني: الندم على الماضي من الأفعال.**

**الثالث: العزم على الترك في الاستقبال.**

# حقيقة التوبة أركانها وشروطها



وعليه بتكثير حسناته هو وتكثير الاستغفار لصاحبه، ليكون يوم القيامة عوضاً عن حقه، إذ كل مَنْ له حق على غيره لا بد أن يأخذ يوم القيامة عوضاً عن حقه، إما بعض طاعاته أو يتحمل هذا الغير بعض سيئاته.

**وما كان في (النفس):** فإن كانت جناية جرت عليه خطأ وجب أن يعطي الدية، وإن كان عمداً وجب عليه أن يملك المجني عليه أو أولياءه - مع هلاكه - من القصاص حتى يقتص منه، أو يجعله في حل، وإن عجز عن ذلك فعليه الرجوع أيضاً إلى الله بالتضرع والابتهاال أن يرضيه عنه يوم القيامة.

**وما كان في (العرض):** بأن شتم أحداً، أو قذفه، أو بهته، أو اغتابه، فحقه أن يكذب نفسه عند من قال ذلك لديه، ويستحل من صاحبه مع الإمكان، إن لم يخف تهديده وزيادة غيظه وهيجان فنتته من إظهاره، فإن خاف ذلك، فليكثر الاستغفار له، ويبتهل إلى الله أن يرضيه عنه يوم القيامة.

ومجمل ما يلزم في التوبة عن حقوق الناس: إرضاء الخصوم مع الإمكان، وبدونه التصديق وتكثير الحسنات والاستغفار، والرجوع إلى الله بالتضرع والابتهاال، وليرضيهم عنه يوم القيامة، ويكون ذلك بمشيئة الله، فلعله إذا علم الصدق من قلب عبده، ووجد ذله وانكساره، ترحم عليه وأرضى خصماءه من خزانة فضله، فلا ينبغي لأحد أن ييأس من روح الله.

وأخيراً نسأل الله تعالى أن يجعلنا وإياكم من المبادرين إلى التوبة وأن يتقبلها منا بقبول حسن ويوفقتنا لكل خير وصلاح.

لكي يضمن أن لا يحاسب على ذنبه يوم القيامة، وسيأتي بيان الجانب العملي للتوبة من الذنب.  
وأما الأمران الأخيران وهما الخامس والسادس، فهما من شروط كمال التوبة، أي: أن التوبة الكاملة لا تتحقق ولا تقبل من دونها.

## الطريق العملي للتوبة:

إعلم أن التوبة من الذنب وكيفية الخروج عنها تختلف بحسب نوع الذنوب التي كان يقارفها الإنسان، لأن المعاصي إما من حقوق الله وهي التي بينه وبين الله، أو حقوق الناس وهي التي بينه وبين المخلوق، والأولى - أي: حقوق الله - إما: واجبات أو محرمات، فهذه أقسام ثلاثة للتوبة:

**الأول:** فإذا كان قد ترك الطاعات الواجبة بينه وبين الله تعالى من الصلاة، والصوم، والزكاة، والخمس والكفارة وغيرها، فطريق التوبة عنها: أن يندم على ما قرط في طاعة الله، ويعزم على تعويض ما فات، وذلك بأن يعلم مقدار ما تركه من الطاعات إن كان متيسراً، أو يجتهد في تحصيل هذا المقدار إن كان متعسراً، ثم يبادر في قضائه ولا يتهاون في ذلك، حتى يحصل له اليقين بفرغ الذمة عن الواجب المكلف به.

**الثاني:** وإذا كان قد فعل المحرمات التي بينه وبين الله، أعني المنهيات: كشرب الخمر، وضرب المزامير، والكذب، والزنا بغير ذات بعل - والعياذ بالله -، فطريق التوبة عنها: أن يندم عليها، ويوطن قلبه على ترك العود إلى مثلها أبداً.

**الثالث:** وأما إذا كان قد قارف الذنوب التي بينه وبين العباد، وهي المعبر عنها بحقوق الناس، وهي إما في المال، أو في النفس، أو في العرض، فالأمر فيها أصعب وأشكل: **فما كان في (المال):** يجب عليه أن يرده إلى صاحبه إن أمكنه، فإن عجز عن ذلك لعدم أو فقر، وجب أن يستحل منه، وإن لم يحل أو عجز عن الوصول إليه لغيبه الرجل غيبة منقطعة أو موته وعدم بقاء وارث له، فليصدق عنه إن أمكنه، وإلا فعليه بالتضرع والابتهاال إلى الله أن يرضيه عنه يوم القيامة،

جاء في نهج البلاغة أنه قال أمير المؤمنين عليه السلام، لقائل قال بحضرته: (استغفر الله: ثكلتك أمك أتدري ما الاستغفار؟ الاستغفار درجة العليين وهو اسم واقع على ستة معانٍ: أولها: الندم على ما مضى.

والثاني: العزم على ترك العود إليه أبداً.

والثالث: أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله أملس ليس عليك تبعة.

والرابع: أن تعمد إلى كل فريضة عليك ضيعتها فتؤدي حقها.

والخامس: أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالأحزان حتى تلتصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد.

والسادس: أن تذيب الجسم ألم الطاعة كما أذقت حلاوة المعصية، فعند ذلك تقول: أستغفر الله) (نهج البلاغة: ج ٤، ص ٩٧).

يشتمل هذا الحديث الشريف الذي نقله السيد الرضي (أعلى الله مقامه) عن إمام الموحدين علي عليه السلام، على ركنين من أركان التوبة هما: الندامة، والعزم على ترك العودة.

فالندامة إقرار بالخطأ والذنب الذي اقترفته، وهذه بداية الانعطاف عن طريق المعصية والرجوع إلى طريق الطاعة.

وأما العزم على ترك العودة إليه، فهو توطئ للنفس أن لا تعود إلى هذا الطريق بعد أن عرف أنه طريق خاطئ يؤدي به إلى الهلكة، وعرف طريق الحق الذي يوصله إلى الرضوان والطاعة، فهذان الأمران هما حقيقة التوبة وقوامها.

ويشتمل هذا الحديث أيضاً على شرطين مهمين للقبول هما: إرجاع حقوق المخلوق لأهلها، وأداء حقوق الخالق سبحانه، وهذان الأمران مطلوبان، لأن العمل السابق الذي عمله بجهالة يمكن أن تترتب عليه تبعات بالنسبة للمخلوقين أو الخالق، وهذه التبعات لا تزول بمجرد ترك الذنوب، بل لا بد من تداركها بعمل ما، حسب نوع الذنب،